الجامعة الالمانية

(تابع ما قبلهُ)

نشرنا في الجزء الماضي جانباً من مقالة الاستاذ داود ستار جوردان يتضح منهُ ان الحكومة الالمانية كانت ترمي الى جعل سياستها الخارجية سياسة عنف وشدة . وقال بعد ذلك ان سياسة العنف تستلزم ان تكون الحكومة مطلقة تعمل برأيها لا برأي عدد كبير من نواب شعبها لانهُ لا يحتمل ان يتفق هؤلاء النواب على امر من الامور اتفاقاً تاماً . والاختلاف بين النواب هو الذي يحفظ الحكومات الدستورية وهو الذي يمنعها عن ان تبادئ غيرها العدوان

فلو كانت اوربا كلها دستورية لتصانت شعوبها وبعدت عن الحرب جهدها وحركة الجامعة الالمانية هي السائق الاكبر في سبيل الاتحاد الاوربي كما قال جول فروليش لان حكوماتها لا تأبى الاتفاق بعضها مع بعض ولكن اصحاب الجامعة الالمانية وكل القائلين ببقاء القديم على قدمهِ لم يروا فائدة لهم من اتفاق الامم الاوربية على المساواة في الحقوق بل رأوا ان السيادة المطلقة يجب ان تكون فوق حقوق الناس ومساعداتهم وآدابهم وان لا تكون مسؤولة لاحد . او كما قال ترتشكي ان الامة لا تخطئ الا خطيئة واحدة لا تغتفر وهي ان تبقى تحت رحمة غيرها فالحرب بهذا المعنى لا صفة ادبية لها اي لا يقال انها شر ولا يقال انها خير وما هي الا واسطة لغاية والغاية تبرر الواسطة . فاذا غزت دولة بلاداً وفازت صار امتلاك تلك البلاد من حقوقها ولذلك فالبلدان الصغيرة تدوم مستقلة الى ان تبتلعها البلدان الكبيرة

ولما كانت الحكومة المطلقة مضطرة ان تحفظ كيانها ضد مساوىء العصر اي ضد الدستوريين والاشتراكيين والداعين الى السلام والطالبين اتفاق الدول فلا بد لها من اثارة الحروب على غيرها لان الحرب هي العلاج السريع الفعال الذي يشفي من التخاذل الداخلي وضعف الوطنية كما قال ترتشكي

ويمكن اعتبار الجامعة الالمانية حيلة سياسية ورواية تمثيلية يراد بها التدليس على اصحاب المطالب الادبية حتى لا يفقهوا غرضها المادي القبيح . وما هي في الحقيقة الا حيلة على حرية الشعب الالماني لكي تضيق عليهِ قيود الاستبداد الحربي والصناعي فتنزع منهُ الحرية وتقدم

له بدلاً منها الأمن وتيله شيئاً من الرخاء الحاضر بدل النجاح المقبل . ويراد بها ايضاً نزع حرية الامم المجاورة ببسط سلطة بروسيا على كل البلدان التي سكانها من اصل المانى وعلى البلدان الواقعة بين المانيا والبحر وبينها وبين التوسع شرقاً

ويمكن عد الجامعة الالمانية رواية تمثيلية من حيث اعتمادها على التقاليد القديمة فانها تدّعي ان تواريخ العصور الوسطى تؤيد حق المانيا في التسلّط على البلدان المجاورة لها التي يقطنها اقوام من اصل توتوني او اقوام كانوا خاضعين « للامبراطورية الرومانية المقدسة » ويمكن ايضاً عدها رواية تمثيلية بما تطمح اليه نفسها من امتلاك بلدان واسعة لا يسكنها في المستقبل الاّ اناس من اصل المانى . فيجب ان تمتد املاكها في افريقية من الاوقيانوس الاتلنتيكي الى الاوقيانوس الهندي ويوصل بين طرفيها سكك الحديد ويكون حكامها من اعيان الالمان وهم يتولون ادارة زراعتها بواسطة سكانها الزنوج على اسلوب يعود بالفخر على الامة الالمانية كما قال الاستاذ دلبرك . الاّ ان هذا الاستاذ قد اعترف ان ليس لالمانيا ربح مالي من وراء ذلك فما الغرض منهُ الاّ مجرّد الجاه والتبجح بالملك الواسع . وهذا شأن المانيا في كل ما ترمي اليهِ . وقد كان للاغراض التي من هذا القبيل وتطلّبها بالقوة والارهاب اثر سيئ في جعل الالمان يعتدّون بانفسهم ويحسبون انهم قادرون على كل شيء . فاذا سلّمنا بدقة علم الالمان ومهارتهم في تطبيق العلم على العمل وبسمو بعض الفنون والآداب الالمانية يبقى فرق عظيم بين العظمة الالمانية التي يراها الناس والعظمة التي يدعيها الالمان انفسهم . ولذلك تجد الجامعة الالمانية تحتقر آراء غيرها وتقول ان الفرنسويين شعب منحط والايطاليين شعب مضمحل (الاّ بعدما حالف المانيا) والروس شعب متوحش والبريطانيين شعب مراء والاميركيين شعب يعبد المال . ولا تلتفت الى صراحة الفرنسويين ومهارة الايطاليين وتعشّق الروس لما يعدّ كمالاً وتملك البريطانيين بالفضائل وصدق عزيمة الاميركيين . ومن ثم يُعلم جهل الالمان اثيرهم من الامم الذي هو العيب الاكبر في السياسة الالمانية والصخر الذي ستتكسر عليهِ قوة المانيا الحربية لان حكم الناس صعب جداً لا تستطيع الجنود ان تدركهُ مهما كثر عددها وقويت اسلحتها

ومما يذكر في هذا الصدد ان فلسفة الجامعة الالمانية تحرّف الحقائق عن وضعها مثال ذلك ان الدكتور منستربرج الالماني استاذ الفلسفة في جامعة هارفرد الاميركية وهو ليس من متخرجيها قال في كتاب لهُ نشرهُ حديثاً اسمهُ « الغد » « ان امتلاك المستعمرات والاستيلاء على المرافئ وتطلّب البلدان الغنية بالمعادن كل ذلك لا يعدّ اعتداء ولا ظلماً

من الغالب بالمغلوب ولا التاريخ يؤيد هذه الدعوى لان مطالب الامم التي يقصد بها غاية سامية يجب ان تحسب من قبيل القيام بواجب مقدّس يفرضهُ التاريخ على الامم » . ولذلك لما اغتصبت المانيا كياوتشاو من الصين قامت بواجب مقدّس على مذهبهِ دعتها اليهِ وطنيتها . وقال في تعريف الحق ما يأتي « يظن البعض ان الحق صورة فوتوغرافية جسم موجود فعلاً ويتسون ان كل ما يسمّى حقًّا انما هو نتيجة تنوعت مرةً بعد اخرى او اختبار تكرر وتحوّر او صورة اخترعها الذهن »

ومن ثمّ صارت الجامعة الالمانية مذهبًا دينيًّا مدارهُ بغض الغير . وقد قال اتوفون فوتبرج « ان رسوم هذا المذهب انما هي ان يحب الانسان اخوتهُ وبلادهُ وملكهُ ويتمنّى النصر الذي يتيح السلام للاحياء والراحة للاموات . هذه هي تعاليم الوثنيين والمسيحيين ايضًا ولذلك فالحرب اسمى واقدس اعمال الانسان وهي الملكوت السموي لالمانيا الفتاة والسبيل لتقدمنا الى الله زلفى »

وقد اهتمت الجامعة الالمانية بالالمان الذين هاجروا من المانيا قاصدة ردهم الى الحظيرة الالمانية . ووضع فون بولو خطة لذلك وصفها برنهاردي بقولهِ « انها ترمي الى منع العنصر الالماني من التشتت في الدنيا وحفظهِ في مجاميع متضامّة يكون منها حلقات سياسية حتى في البلدان الاجنبية ضلعها مع المانيا والى فتح الاسواق للتاجر الالمانية والمعاهد العلمية لنشر الادب الالماني »

ويبلغ عدد الالمان الذين هاجروا من المانيا ويراد ردهم الى الحظيرة الالمانية ملايين كثيرة . وهم يدّعون ان في الولايات المتحدة وحدها عشرة ملايين وفي غيرها من البلدان عشرة ملايين اخرى وهذا العدد على ما فيهِ من المبالغة لا يعود بالفخر على المانيا لان الذين رضوا منهم ان يكونوا عمالاً سياسيين لها باجرة او بغير اجرة قليلون جدًّا لا يزيدون على بضعة الوف ولم يخدموا المانيا خدمةً كبيرة ومع ذلك تقاضوا عليها اجوراً باهظة . ولكن لا شبهة في ان رجالاً تدبرهم الجامعة الالمانية انتشروا في كل المسكونة وكان لهم اليد الطولى في تخيير امم المانيا حتى قبلما نشبت هذه الحرب وطُلب منهم ان يقوموا بالاعمال العدائية فقد قال جون هاي[1] ان اعمالهم لم تبقِ لالمانيا صديقًا في الدنيا الاّ انما المعتمدة على المانيا وتركيا المأجورة منها

ومن اعمال الجامعة الالمانية ايضًا اجبار الناس على استعمال اللغة الالمانية في كل مكان

(١) سياسي اميركي وكاتب مشهور كان وزيرًا لمداطنة في رياسة مكنلي

يصل اليه النفوذ الالماني ومنع استعمال الكلمات الاجنبية في البلاد الالمانية وابطال اللغات الاجنبية الفرنسوية والبولندية والدنمركية والنلمنكية من كل البلدان التي ضمتها المانيا اليها . وكان ما بذلتهُ من الجهد في نزع جنسية السكان في الالزاس واللورين مكروهاً لدى الالمان اشدهم سكان تينك الولايتين كما كان مكروهاً لدى الفرنسويين سكانهما

ولما نشبت الحرب الحاضرة ظهرت سطوة الجامعة الالمانية على اشدها فان الشعب الالماني لم تكن لهُ يد في الحرب مع ان خطتها وضعت في المانيا ومنها اوقدت نارها . ولا يزال اكثر الالمان يعتقدون حتى الساعة ان الامة الالمانية بريئة من اثارتها معتدًى عليها لا معتدية . ولقد سهل على الجامعة ان تقنع العوام ان روسيا وفرنسا وبريطانيا اتفقن على تضييق خناقهم للقضاء عليهم مستشهدة على ذلك بما في الصحف الاجنبية من اقوال العداء المشابهة لاقوال برنهاردي والكونت رفنتلو وبعض الصحف الالمانية . ولا تخلو بلاد من كتَّاب متطرفين شأنهم يزر بذار العداء حتى لقد اجتمع جماعة من السياسيين من ممالك اوربا المختلفة في باريس في اوائل يوليو سنة ١٩١٤ للنظر في ما يجب عملهُ لتخليص اوربا من صحفها التي تتجشَّع بالوطنية

ان الاحزاب الاوربية التي تميل الى استعمال القوة والعنف اثبت ما غلَّ ايديها في فرنسا لتي الحزب العسكري في مسألتي دريفوس وبولانجه ما قضى على غلوائهِ . وفي انكلترا لقي المحافظون في حرب البوير ما اضعف سلطتهم . واما في المانيا فطامع المستبدين لم تجد ما يقاومها منذ سقط نبوليون الى الآن . نعم ثار المقاومون لها سنة ١٨٤٨ ولكن انتهى الامر بالقضاء على زعمائهم

وقد ظهرت مضار سياسة الجامعة الالمانية بتمهيد حرب البلقان الاولى بخيبة المساعي لانشاء مملكة جديدة في المانيا التي سبَّبت حرب البلقان الثانية . وبعدم انصاف شعوب البلقان وعدم تركهم لانفسهم وشل يد الحكومة الالمانية حينما اهتمت بامر السلم . كل ذلك سببهُ اعمال الجامعة الالمانية والى دسائسها ينسب ما فعلتهُ المانيا اذ رفضت أن تقنع النمسا عن تهديد السرب وابت ان تشترك في مؤتمر اوربي لحل هذه المشكلة . وهي التي جعلت اركان الحرب يضطر امبراطور المانيا الى اعلان الحرب على فرنسا لاسباب لم تثبت صحتها بل ثبت الآن انها مختلفة . ولما تجاسر الامبراطور ووزيرهُ على ارسال رسالة الى النمسا يشيران بها عليها ان لا تكدر صفاء السلم اوقف ڤون تشرسكي السفير الالماني هذه الرسالة ولم يوصلها الى الحكومة النمسوية او اوصلها على اسلوب يغير معناها لانهُ من اعضاء الجامعة

الالمانية . وقد نسب جنسكو وزير رومانيا السابق التهجم على سربيا الى ثلاثة من اعضاء الجامعة الالمانية وهم الكونت تسرنا وزير الحجر وفون تشرسكي سفير المانيا وفورغاش صنيعتها في النمسا . ثم لما كاد الاتفاق يتم بين روسيا والنمسا قبل اعلان الحرب قام اعضاء الجامعة واذاعوا في طول البلاد وعرضها ان روسيا شرعت في تعبئة جيشها وساعدتهم الجرائد الحربية والجرائد الاكليريكية (الدينية) على جاري عادتها . فالجامعة الالمانية القت بالمانيا وباوربا كلها في اتون هذه الحرب الزبون معتمدة على الكذب والخماس الكاذب والتبجح بالوطنية . واضطر الامبراطور وحكومتهُ الى مجاراتها لانها كانت قد اعدت الافكار اعداداً تسهل مقاومتهُ فنودي بالتعبئة العامة وهي آلة فعالة لاعمال الجامعة لانها تستلزم ابطال كل سلطة غير عسكرية

وفي الثلاثين من يوليو اي قبلما أعلنت المانيا الحرب فعلاً باربعة ايام نشرت جريدة اللوكال انزيجر في كل مدن المانيا انهُ صدر الامر بالتعبئة العامة . وهو اختلاق منها ولكنها جريدة شبيهة بالرسمية يديرها ولي العهد فغلّت يدي وزير الامبراطورية واثبتت لكل احد ان الحرب واقعة لا محالة . وأُرسل الخبر بالتلغراف الى روسيا حالاً فثبت للروس ان الحكومة الالمانية امرت بالتعبئة العامة فاضطروت روسيا من اقصاها الى اقصاها . وأُرسلت الى روسيا تلغرافات من برلين تكذب هذا الخبر ولكن مصلحة التلغراف اوقفتها ولم ترسلها الاَّ بعد ما شاع خبر التعبئة وعملت روسيا بما يستلزمهُ

والخلاصة ان الحرب نشبت باختلاق الاخبار الكاذبة عن فرنسا وبتأخير تلغرافات النفي عن روسيا . وكأنَّ كلاً من المانيا وفرنسا وروسيا وقفت حينئذٍ وقفة الحيرة وهي تقول ماذا افعل وكل امةٍ من هذه الامم الثلاث شاكية السلاح الى النحر

حيلة اختلقتها الجامعة الالمانية كما فعل بسمارك لما حرَّف التلغراف في ايمس فدعا الى اثارة الحرب بين فرنسا وبروسيا سنة ١٨٧٠

وقد قام كاتب ممتاز في الوقاحة سمَّى نفسهُ يوليوس اولتر فطعن على الوزير بتمن هلمغ طعناً فاحشاً مصوِّباً ما فعلتهُ اللوكال انزيجر بقولهِ

« لقد عملت المانيا كلها ان الساعة قد حانت الاَّ بتمن هلمغ فانهُ بقي يرجو ان يحل الاشكال حلاً سلمياً او تنحصر الحرب في النمسا وسربيا . وواضح انهُ بذل كل جهدهِ حتى الساعة الاخيرة ليمنع وقوع ما لا بدَّ من وقوعهِ ولو كلَّفهُ ذلك معها كلفهُ غير ملتفت الى المقتضيات الحربية . وكثيراً ما قال لهُ اركان الحرب ووزير الحربية ورؤساء البحرية ان لا

بدٌ من التعبئة العامة فلم يتخلوا ولم يقنعوا الامبراطور بوجوب ذلك الاَّ بعد الجهد الجهيد. ويوم الثلاثاء في ٣٠ يوليو جاء اعلان التعبئة في نشرات البوليس والوكال انزيجر ولكن بثمن هلفغ نفاذهُ وابطل فعلهُ حينئذٍ »

وقد ناقض رجال الحربية اوامر الحكومة في امر بلجكا قال يولوس اولتر في هذا المعنى « ان مسألة ضم بلجكا الى المانيا صارت لدى وزير الامبراطورية كل مدة الحرب مثل الخرقة الحمراء لدى الثور في اسبانيا (اي مكروهة جدًّا) لانهُ لما خرق حياد البلجيك في ٤ اغسطس سنة ١٩١٤ وعد انهُ يكفّر عمَّا فعلهُ فكيف يستطيع ان يضمها الى املاك المانيا بعد هذا الوعد. وقد نسي مصالح المانيا وحسبنا ذكر افرس للدلالة على اهمية هذه المصالح وهذا شأنهُ من اللين مع فرنسا ناسيًا ما خسرتهُ في معارك الفوسج والموز وانهُ يجب علينا ان لا نبقي تلك الاماكن لغيرنا بل نحتفظ بها لكي نتمكن من مقاومة انكلترا — كل ذلك نسبهُ الوزير بثمن هلفغ على ما يظهر »

وهذه المطالب واشباهها مثل امتلاك بلجكا وهولندا واجتياح الولايات الشمالية من فرنسا وجعل بولون اكبر مرفإ بحري في اوربا واخذ غرامة فاحشة من باريس كانت من المواضيع التي يتناولها البحث دائمًا في حلقات الجامعة الالمانية لما كان كاتب هذه السطور في المانيا سنة ١٩١٣. ولم يكن الجمهور يعلق شأنًا كبيرًا عليها وكانت وزارات المانيا تناقضها ما عدا وزارة الحربية ووزارة البحرية لكن نجاح الجامعة في اثارة الحرب ولاسيما في استخدام النواصات القت الضياء بين وزير الامبراطورية ووزير البحرية

والظاهر ان الامبراطور ايَّد وزيرهُ اي ايَّد الحزب المعتدل كما يستدل من استعفاء ملتكي وتربتز وفلكنهين لكن الحزب المتطرف لم يضعف عزمهُ فبقي على سياسة الارهاب بالنواصات والبالونات للقتل والتخريب فخسرت المانيا ادبيًّا اكثر مما كسبت ماديًّا

والمسألة المهمة الآن ليست ما هو السبيل لسحق المانيا بل ما هو السبيل لتخليصها من هذه الفئة الطاغية فئة الجامعة الالمانية. وتخليصها منها لا يكون الاَّ بيد الالمان انفسهم. والظاهر انهم سيفعلونهُ فان سائحة الكونت رفنتلو وامثالهِ اخذت تحط وجعلت اصوات طالبي الحكم الدستوري تزيد جلاءً. فاذا تمكنوا من التغلب على آراء اصحاب الجامعة الالمانية ومطامعهم ونظروا الى مصالح بلادهم بعين العقل والتروي ودخلوا البيوت من ابوابها وانقاد خصومهم اليهم انعقدت الآمال بانحلال مشكل من اعقد مشاكل العمران. ولا يصلح العالم الاَّ اذا انفصلت القوة الحربية عن المصالح المالية انفصالاً تامًّا